

عبرة الهجرة

في الظروف الراهنة

الاستاذ حسن فتح الباب

نتأجها - أن نؤمن النظر في هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلهمين منها العظة والعبرة ، عاقدين العزم على الافادة من دروسها - وما اكثرها واجلها من دروس - في التغلب على مانواجه من تحديات ، وفي الانطلاق بعدها الى النصر النهائي .

ولطالما كتبت البحوث الضافية والدراسات القيمة عن القيم الروحية التي تجسدت في سلوك المهاجر العظيم عليه السلام ومن اتبعه في مسيرته الخالدة ، وعن الحكم والعبر المستوحاة من الهجرة ، من سمو في الجهاد ، وجلال في الصمود ، وقوة في الارادة ، وثبات على المبدأ ، ووفاء للعهد ، وعظمة في التضحية ، وكلها تمثل عبرة الهجرة التي ينبغي أن نفيدها منها ولا سيما في الآونة الحاضرة .

وحسبنا أن تلقى الضوء في هذا المقال على جوانب من الهجرة بالتحليل المتعمق واضعين نصب اعيننا الربط بين هذه الجوانب وما توحى به وبين متطلبات المعركة التي يقودها الاسلام والعروبة ضد اعدائها من الصهيبين والمستعمرين .

ما أكثر الوقائع والاحداث التي يحفل بها تاريخ البشرية منذ أقدم العصور ، ذلك التاريخ الذي سجل عبر مراحل المختلفة قصة الصراع الابدى بين الحق والباطل . وكم من معارك خاضها الانبياء والمصلحون في سبيل نصره النور على الظلام والعدل على الظلم .

ولو أننا تأملنا هذه الاحداث في ضوء أثرها في تطوير المجتمع الانساني والانتقال به الى عالم افضل ، لتبين لنا أن الهجرة تقع في مكان الصدارة من تاريخ العالم بالنظر الى ما أحدثته من آثار تقدمية عميقة الجذور بعيدة المدى في ذلك المجتمع .

فلقد طويت بالهجرة صفحات عالم قديم سادت فيه الفوضى وعم الفساد ، وافتتحت به صفحة عالم جديد أساسه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكانت نقطة تحول حاسم اعتدل به ميزان التاريخ الى وجهته الصحيحة .

وما أجدرنا - في تلك الظروف الدقيقة التي تمر بها الامة العربية والتي يتوقف مصيرها على

« انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » .

واذا قدم المسلم عملا الى الله تعالى حرص على ان يبذل فيه من ماله ومن جهده ما يجعله في مقام الخلوص لله ، وما يبعده عن مظنة الاستمانة بغير الله ، ولقد خرج رسول الله يوم الهجرة وهو يريد وجه الله وحده وهاجر وهو حريص على دينه ودعوته وليس بحريص على حياته أو نفسه ، فكيف لا يبذل كل ما رزقه الله من مال في سبيل هجرته لوجه الله الخالق الرزاق .

ومصدق ذلك ان بعض اهل العلم قد سئل : لم لم يقبل رسول الله الراحلة التي وهبها اباها ابو بكر الا بالثمن ، وقد أنفق أبو بكر على الدعوة من ماله ما هو اكثر من هذا فقبل ؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ليس من أحد آمن على في أهل ومال من أبي بكر » . وقد دفع اليه حين بنى بعائشة اثنتي عشرة أوقية فلم ياب ذلك ؟

فكانت الإجابة : « انما ذلك لتكون هجرته الى الله بنفسه وماله ، رغبة منه عليه الصلاة والسلام في استكمال فضل الهجرة وان تكون الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما .

ويمثل سلوك أبي بكر في موقفه هذا قيمة روحية من أجل القيم الروحية في الإسلام ، وهي الوفاء للصديق والتضحية في سبيل ما يدعو اليه من حق ، تلك القيمة التي اهلت ابا بكر أكثر من غيره ليكون شريك رسول الله في الجهاد ، ورفيقه في رحلة الخلاص من اضطهاد المشركين ، وصاحبه في السراء والضراء ، وليكون بعد ذلك عوناً له في الفزوات ، يمدّه بجهده وماله ولا يبقى لنفسه وأهله شيئاً .

ومن ذلك أنه لما حث النبي المسلمين على الصدقة لاعداد الجيش وتموينه في غزوة تبوك كان أبو بكر أول المنتدقين ، جاد بماله كله ، فقال له الرسول : « ما أبقيت لأهلك ؟ » :

وتبدو هذه الجوانب متفرقة في تضاعيف الكتب التاريخية الخاصة وبخاصة كتب السيرة ، ولكن العين الفاحصة المدققة تستطيع ان تبين الاطوار الذي يضمها والوحدة التي تنتظمها وتجعل منها بعض الملامح التي تميز الهجرة والتي من شأنها اذا اضيفت الى الجوانب الاخرى المعروفة ان تكون صورة متكاملة لأروع ملحمة بطولية في تاريخ الإنسانية .

ومن هذه الجوانب ما يتعلق بالقيم والمبادئ ، ومنها ما يدخل في نطاق علم الادارة ، كما يتصل بعضها بالسياسة والاجتماع ، وبعضها الآخر بالاحكام الشرعية .

ففي مجال القيم والمبادئ يسترعى نظر الباحث موقف من مواقف الهجرة الجليلة يرسى فيه رسول الله من خلال سلوكه مبداً رشيداً ويجعل منه منارة يهتدى بها المسلمون في جهادهم المتصل دفاعاً عن دعوة الحق ونشراً لألويتها وانتصار الروادها وردعاً لاعدائها وللخارجين على صفوفها .

ذلك ان ابا بكر - كما جاء في كتاب « الروض الأنف » للسهيلي من حديث لابن اسحق - كان قد أعد راحلتين ، فقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة ، وهي أفضلهما ، فقال رسول الله : « انى لا أركب بعيراً ليس لى » يعنى أنه عليه السلام لا يقبل ان يستخدم شيئاً لا يملكه ، فان هذا من حق مالكة وحده . قال أبو بكر : هو لك يا رسول الله .

ومن ثم فقد أصبح البعير هبة من أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم . غير أنه عليه السلام عقب على عرض صاحبه هذا بقوله : « بالثمن » . جاعلاً بذلك دفع ثمن البعير الى أبي بكر شرطاً لا بد من الوفاء به قبل امتلاك البعير . فقبل أبو بكر محبة في رسول الله واخلاصاً وطاعة له قائلاً : « بالثمن يا رسول الله » وارتضى النبي ان يركب الراحلة .

ويستفاد من رفض الرسول ان يركب الناقة التي اشتراها له أبو بكر ليركبها الا اذا دفع ثمنها من ماله ، أنه عليه السلام أراد ان يبذل من ذات يده ما يستطيع ، كى تكون هجرته خالصة منه لله . وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

قال : « أبقيت لهم الله ورسوله » .

وبذلك آثر الصديق مصلحة الاسلام والمسلمين على مصلحته الخاصة في ايمان وثقة بالله . وكان أهلا لقول الرسول فيه :

« ما نفعنى مال احد قط مثل ما نفعنى مال أبى بكر » .

ذلك لأن أبى بكر قد خرج مع رسول الله في الهجرة وقد احتمل ماله كله معه - خمسة الاف درهم أو ستة الاف - فكان جديرا بتقدير رسول الله ، بل كان أهلا لتكريم الله له إذ نزلت الآية الكريمة في موقفه من أبيه حين قال له :

« يا بنى ، انك تعتق الضعفاء من الجوارى والعبيد ، وهؤلاء لا تستفيد منهم في تجارة أو عمل ، فلو انك اعتقت رجلا اقرباء لناصروك ، ودافعوا عنك ونفعوك »

فقال أبو بكر :

« يا أبت ، انى اعتق من اعتق من ضعاف القوم لا أريد بذلك الا وجه الله تعالى ورضاه » .

فنزل قوله تعالى :

فاما من أعطى واتقى ، وصمدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » .

ذلك أحد الدروس الخالدة المستمدة من الهجرة والتي ينبغي علينا ان نعبر عن استيعابنا لها واقتناعنا بها بالسلوك والفعل مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه . فليبدل كل مسلم بعض ماله معاونة لابطال المقاومة المجاهدين في دفاعهم عن الاسلام والعروبة . وليعلم انه لا سبيل الى النصر الا ببذل الارواح رخيصة والاموال خالصة في سبيل قضيتنا المقدسة ، وليثق أن التبرع بالمال في مثل هذا الغرض باب من أبواب الجهاد في سبيل الله يؤجر عليه المرء ويثاب أحسن الجزاء .

لقد حشد العدو كل طاقته واستعان بكل القوى المعادية لشرائعنا ومصالحنا كي تكون له الكلمة الفاصلة في القضية ، فيفرض علينا شروطه ويجبرنا على الاستسلام .

والسبيل الى قهر العدو واجباط خطه العدوانية هو ادراك أبعاد المعركة وارتفاع كل منا الى مستوى المسؤولية التي تحتها ، وتقتضى هذه المسؤولية نبذ الفردية والانانية ، وإيثار صالح الأمة والدين على المصالح الذاتية ، والتعبير عن ذلك بمضاعفة الجهد ، وبذل المال لمن يقف في جبهة النضال مسترخضا روحه في سبيل ديننا ووطننا وشرفنا .

ومن عبر الهجرة ودروسها في الظروف الراهنة أهمية الالتزام بالكتمان فيما جل من أمور : اتقاء لتسربها الى العدو . وذلك واجب أساسى على كل من يشغل منصبا حساسا أو يتاح له العلم بأسرار البلاد العسكرية وغيرها مما ينبغي تكتمه لما يلحقه بالجبهة الخارجية أو الداخلية من ضرر بليغ .

وكتمان السر أمر يدعو اليه الاسلام ، ويعده وسيلة للنجاح في العمل . وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

وقد اتخذ النبي من التكم الشديد سستارا لمخططة في الهجرة حتى لا يبلغ الأمر قريشا فتترصده وتقتفى خطاه ، ولم يخبر احدا بما اعتمزم حتى أبى بكر الا قبيل تنفيذ الخططة مباشرة . وبرى المؤرخون في ذلك انه لما أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة الى المدينة ذهب النبي الى أبى بكر في بيته ليحدثه بأمر الهجرة ، وقال له :

« أخرج عنى من عندك ، يريد أن يخلو به ليحدثه سرا » فقال أبو بكر :

« يا رسول الله انما هما ابتئى (يريد أسماء وعائشة) فأخبره الرسول خبر الهجرة فى حضورهما .

وحين غادر رسول الله داره ليلا تاركاً عليا فى فراشه ، قصد الى دار أبى بكر حيث التقى به بناء على سابق موعد وخرج من خوخة - مخترق ما بين كل دارين - فى ظهر الدار ثم بادرا الى راحلتيهما يركبانهما فى الطريق الى المدينة .

ومن آيات التكم والحذر أن الرسول عليه السلام قد اختار لمعاوته فى الهجرة قلة قليلة من

مع النبي مهاجرا تسألها عن أبيها فقالت : لا أدري
أين يكون ، فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها .
واحتملت ذلك الأذى في سبيل الله .

ومن ذلك أيضا كتمانها عن جدها أبي قحافة نبا
احتمال أبيها ماله في خروجه مهاجرا مع النبي الى
المدينة . وتروى أسماء رضی الله عنها تلك الواقعة
في قولها :

« لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وخرج أبو بكر معه ، احتمل ماله كله معه - خمسة
الاف درهم او ستة الاف درهم - فانطلق بهامعه ،
فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره ،
فقال : والله انى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه .
فقلت : كلا يا أبت ، انه ترك لنا خيرا كثيرا . ومن
ثم أخذت أحجارا فوضعتها في كوة البيت حيث كان
أبى يضع فيها ماله ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت
بيده فقلت : ضع يا أبت يدك على هذا المال ،
فوضع يده عليه وقال : لا بأس ، ان كان قد ترك
لكم لكم هذا فقد أحس ، وفى هذا بلاء لكم . . فوالله
ما ترك لنا شيئا . ولكن أردت ان أسكن الشيخ
بذلك » .

وحرى بنا - ونحن في صدد مواجهة حاسمة مع
عدو مخاتل يتخذ من الاستخبار وتقصى انبائنا
أسلوبا لتحقيق أهدافه - ان نستفيد من درس
الكتمان الذى التزمه الرسول في هجرته عليه
السلام كما التزمه المسلمون أسوة به فنقتدى به
في حياتنا كيما نحبط وسائل العدو ونرد كيده .

تلك بعض العبر المستخلصة من هجرة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وما أجلاها من عبر
وذكرى تنفع المؤمنين ولا سيما في تلك المرحلة
الحاسمة في تاريخ الأمة العربية ، وأنعم بمن أفاد
منها فكسب النصر لدينه ووطنه .

وصدق الله العظيم :

« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

الأفراد تمثل الحد الأدنى الذى تقتضيه الرحلة .
فاختار على بن أبى طالب ليتوسد رداءه ويبيت على
فراشه ، واختار أبا بكر ليصحبه في مسيرته ،
واختار أسرة أبى بكر : عبد الله بن أبى بكر وأسماء
وعائشة ، ومولاهم عامر بن فهيرة ، والدليل
عبد الله بن أرقط .

ذلك لان السرية ، كانت شرطا ضروريا لتحقيق
الهدف ، فلو ان فردا واحدا لا تتوافر فيه صفة
الكتمان قد ندب للقيام بدور في خطة الهجرة لما
تحقق الغرض ومن ثم كان اختيار النبي لأسرة
أبى بكر لمعاونتهما لانها تشكل جماعة واحدة
يرتبط كل من افرادها بالآخر بأقوى صلة وهى
صلة الدم . فنجاح الجماعة هو نجاح لكل فرد
فيها لان المصلحة مشتركة بينهم .

ولقد كان الكتمان أسلوبا للخطة التى اتبعها
رسول الله قبيلى الهجرة ، اذ امر المسلمين ان
يخرجوا من مكة الى المدينة متفرقين ، وان يلتزموا
التكتم والحذر حتى لا تقف قريش على أمرهم
فيصيبهم منها أذى .

كما تدل وقائع بيعتى العقبة ، والظروف التى
اكتنفتهما ، على مبلغ التكتم الذى راعاه رسول
الله اذ كان يختار للقائه بأهل المدينة موسم الحج
حتى لا يستلقت اليه النظر . وكان يلتقى بهم ليلا
في بقعة هادئة ، فيتسللون واحدا بعد آخر من
رجالهم للتجمع في المكان المحدد خلال ساعة من
الليل محددة .

كما كان الرسول في لقائه بأهل المدينة في موسم
الحج يدعو الرجل ممن لم يكن قد أسلم الى
الاسلام متوخيا ان يتم ذلك سرا ممن حضر من
كفار قومه .

ولقد اتبع أعوان رسول الله في الهجرة نهج
النبي في الكتمان طاعة لأمر رسول الله وحرصا
على نجاته هو وصاحبه . ومن ذلك ان أسماء
بنت أبى بكر جاءت قريش عقب خروج أبيها